المحور السادس: التواصل والتأثيرات

مركز تلمسان على مسالك التجارة في العصر الإسلامي الوسيط

د./ عبد العزيز شهبي
المدرسة العليا للأساتذة
ببوزريعة – الجزائر

مقدمة:

ارتبط النشاط التجاري في منطقة تلمسان ارتباطاً وثيقاً بالأوضاع الحضارية لتلك المنطقة، وكانت الأنشطة التجارية تمثل عصباً اقتصادياً فعالاً في الحياة، وتقوم بربط علاقات تجارية داخلية وخارجية، والاهتمام بالطرق والمراكز التجارية. وذلك لوقوع منطقة تلمسان على شبكة من الطرق والمسالك، رابطة بين أقصى الغرب الإسلامي وشرقه، وشمال المغرب بمناطق السودان الغربي في الجنوب، وبين الأندلس والبحر شمالا والمغرب جنوبا. وقد تمكن التجار من ممارسة أنشطتهم عبر تلك المسالك والطرق، و لم تنقطع حتى في حالات الحروب والفتن التي عرفتها المنطقة في العصر الإسلامي الوسيط.

وذكرت المصادر أخبار الطرق والمسالك المارة بمنطقة تلمسان، وما كان يحمل عليها من السلع والبضائع، ووصفت مدينة تلمسان أنها ذات أسواق ومساجد ومسجد جامع وأشجار وأنهار، وهي مقصد لتجار الآفاق، ومدينة مشهورة وكبيرة، وحولها حواضر ومراسي عديدة، أشهرها هنين ووهران وأرشقول.

العلاقات التجارية في القرنين 3 و4هـ (9 - 10م)

عرف المسلمون ابتداء من القرن الثاني إلى الرابع الهجري نشاطا تجاريا كبيرا، أدى إلى ازدهار المدن، وانتشار شبكة المسالك التجارية البرية والبحرية معا[1]. وكان لدول المغرب ومدنها، دور بارز في المبادلات التجارية بينها وبين المشرق الإسلامي، وبلاد السودان الغربي جنوبا، والأندلس وبلاد الإفرنج شمالا. وهي إمارة بني مدرار في سجلماسة (140 - 296هـ/757 - 909م)، والدولة الرستمية في تاهرت (161 - 296هـ/778 - 909م)، ودولة الأدارسة في المغرب الأقصى (172 - 315هـ/788 - 926م)، والأغالبة في افريقية (184 - 296هـ/800 - 909م)، والخلافة الفاطمية في المغرب (296هـ- 362هـ/909 - 973م).

سمحت جغرافية المغرب الإسلامي بتفتح تجاري وحضاري، ونشر الإسلام، لاسيما في المناطق الصحراوية، وبالتالي تنوع المسالك التجارية شرقا وجنوبا وشمالا، وكذا ازدهار تجارة الذهب والرقيق في بلاد المغرب، ومنطقة البحر المتوسط.

كان المسلك التجاري الخاص بتجارة الذهب والرقيق بين بلاد السودان والشمال يمر ببلاد المغرب[2]، جاعلا من القيروان وبلاد الجريد ووارجلان،وتاهرت وتلمسان وفاس وسجلماسة مراكز تجارية نشطة تتفرع منها مسالك فرعية. وتجمعت عن طريق التجارة الصحراوية ثروات كبرى في مدن المغرب. ومن أهم البضائع التي كانت في قائمة المبادلات التجارية بين المغرب الاسلامي ومراكز التجارة المتصلة بها في تلك الفترة، هي الحبوب وزيت الزيتون واللحوم والقطن والخشب والملح. والتمور والعسل والسكر والزبدة والمرجان والعنبر والعطور والورق والمنسوجات والصوف والنحاس المصنوع والحديد والشمع والجلود والفرو، ومادة الزئبق التي كانت تستوردها المدن المغربية من الأندلس لاستخدامها

1- الحبيب الجنحاني. المغرب الإسلامي (الحياة الاقتصادية والاجتماعية في القرنين(3و4هـ_9_10م). الدار التونسية للنشر _ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر1978. ص14

2- عبدالرحمن بن خلدون . تاريخ ابن خلدون (العبر). ج6. دار الفكر. بيروت 1891. ص814

في صناعة الذهب. غير أن السلعة الثمينة التي كانت محور التبادل التجاري بين المغرب الاسلامي وبلاد السودان فهي الذهب والرقيق، حيث كان ذهب السودان يغذي مصانع ضرب العملة الذهبية في بلاد المغرب، ويدعم حركة التبادل التجاري بين بلاد السودان والمغرب من جهة، وبين المغرب والمشرق الاسلامي ومنطقة البحر المتوسط من جهة ثانية[1].

وكانت مدن المغرب الإسلامي عبارة عن أسواق للبضائع لإعادة توزيعها في اتجاه المشرق الاسلامي وصقلية من إفريقية وشواطئها، أو في اتجاه الأندلس من السواحل الغربية[2].

العلاقات التجارية بين بلاد المغـــرب وبلاد الســـودان في القرنين 3 و4هـــ (9 – 10م)

كانت أهم بضاعة تحملها القوافل التجارية من بلاد المغرب إلى بلاد السودان هي الملح، وأنواع التمر، والمنتوجات الزراعية الجافة، والمنتوجات الحيوانية، وأنوع المنسوجات، والسلع الواردة من المشرق والأندلس وبلاد الروم، عن طريق السواحل المغربية.

وتعرض «البكري» وفي وصفه لمدينة أودغست وهي مركز تجارة الذهب والرقيق والملح، فقال: « ويتجهز إلى أودغست بالنحاس المصنوع، وبثياب مصبغة بالحمرة والزرقة مجنحة، ويجلب منهاالعنبر المخلوق الجيد لقرب البحر المحيط منها، والذهب الإبريز الخالص خيوطا مفتولة، وذهب أودغست أجود ذهب أهل الأرض وأصحه»[3].

وذكر «ابن حوقل» العلاقات التجارية الصحراوية في اتجاه الجنوب، من سجلماسة نحو بلاد السودان بقوله: «تقارب القيروان سجلماسة في صحة

1- عيسى قوراري، مجلة علوم إنسانية، السنة الرابعة، العدد 31، تش2 (نوفمبر 2006)
2- قوراري، الرجع نفسه
3- أبو عبيد عبد الله البكري (487-432هـ/1094-1040م)، المُغْرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، (وهو الجزء الخامس من كتاب: المسالك والممالك، حققه وترجمه للفرنسية: «دوسلان»)، مطبعة الحكومة، الجزائر 1857، و دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (د.ت.ط)، ص 159

الهواء ومجاورة البيداء، مع كثرة تجارة غير منقطعة من سجلماسة إلى بلد السودان، وأرباح متوافرة، ورفاق متقاطرة »[1].

جاء في كتب الجغرافيين العرب أن البضائع التي حملتها القوافل التجارية عن طريق سجلماسة وكانت تسوق في بلاد السودان، تمثلت في صادرات المنتوجات الزراعية ومنتوجات الحرف اليدوية المختلفة. كانت تتوجه بلاد السودان الغربي، خاصة نحو مدينة أودغست وغانة وتكرور، ومن هذه المنتوجات القمح والتمور، والثمار المجففة والزبيب والمسوجات والنحاس المصنوع والخرز والملح. ويجلب من بلاد السودان الذهب والرقيق والعنبر، وريش النعام وبيضه، وأشجار الصمغ التي تصدر إلى الأندلس ويصمغ بها الديباج[2]. ويصف «الحميري» مدينة تكرور بقوله: « وإليها يسافر أهل المغرب الأقصى بالصوف والنحاس والخرز، ويخرجون منها بالتبر والخدم »[3]. (أنظر الخريطة رقم: 1)

المسالك التجارة في القرنين 3 و4هـ (9 – 10م)

على الجهة الشرقية الشمالية من سجلماسة، نشطت مدينة تلمسان، وشكلت بدورها قاعدة تجارية على غاية من الأهمية، حيث كان يربطها مسلك تجاري مع سجلماسة ومنها إلى أودغشت. كما ينطلق من تلمسان المسلك التجاري القاصد أراضي نهر السنغال ومنطقة نهر النيجر، مرورا بواحات كورارة وتوات. ثم المسلك المغذي للمراكز التجارية بالأندلس، فضلا عن المسلك الغربي المتوجه نحو فاس، والمسلك الشرقي المتوجه نحو القيروان مرورا بتاهرت.

ومما سجّله الجغرافيون والمؤرخون العرب لهذا المجال، فذكر «اليعقوبي» (ت 234هـ/ 897م): « ثم إلى المدينة العظمى المشهورة بالمغرب، التي يقال لها تلمسان، وعليها سور حجارة، وخلفه سور آخر حجارة، وبها خلق عظيم،

1- أبو القاسم بن حوقل. (ت 368هـ/978م). كتاب المسالك والممالك. مطبعة بريل. ليدن 1872. ص70

2- البكري. المصدر السابق. ص158

3- أبو عبد الله محمد الحميري. (ت 727هـ/1327م). الروض المعطار في خبر الأقطار. مكتبة لبنان. بيروت 1975. ص134

وقصور، ومنازل مشيدة »[1].

وقال «المقدسي» (336 - 390 هـ): « وتأخذ من المسيلة غرباً إلى أشير ثلاثة أيام، ثم إلى تاهرت خمسة، ثم إلى فكان مثلها، ثم إلى تلمسان مرحلتين، ثم إلى جراوة مثلها. وتأخذ من تلمسان إلى صاع مرحلتين »[2].

أما «ابن حوقل» (ت 368هـ/ 978م) فاستفاض في وصف النشاط التجاري لبلاد المغرب خلال القرن 4هـ /10م، وما يتعلق به من عوامل متحكمة فيه، والمسالك التجارية، ومبادلات الإنتاج الزراعي والصناعي، فقال: « فهذه جملة أحوال المدن المشهورة والمراسي والقوى المعروفة على نحو بحر المغرب من جد برقة إلى البحر المحيط، مما انتهيت إليه وأدركته بالعيان أو أخذته عن من نشأ فيه »[3].

كانت المسالك التجارية في المغرب خلال القرن 4هـ/10م، على اختلاف أنواعها، ممهدة ومحطاتها متقاربة، وسارت مع مراكز الإنتاج والاستهلاك، فنوجزها كالتالي:

أولاً: مسلك ساحلي، يقطع الساحل المغربي ابتداءًا من برقة إلى البحر المحيط (الأطلس)، وتقع عليه مدن منها: بونة، وجزائر بني مزغنة، ووهران، وواسن، وسبتة، وطنجة.. وكانت المدن الساحلية محطات للتجارة البحرية، وارتبطت بالمناطق الداخلية، حيث نقلت منتجاتها الزراعية والحيوانية والمعدنية إلى الداخل عبر مسالك فرعية، ومن ذلك: الحنطة والشعير من بونة، وطنجة، والزيتون وزيته من سفاقس وقابس وتونس ، والقنب والكرويا من تونس، والفواكه من تونس وقابس وبونة وتنس ووهران، كالتين الذي تنتجه جزائر بني مزغنة وبونة، والسفرجل من تونس، وكذلك المواشي من البقر والغنم فمن تونس وجزائر بني مزغنان وواسلن (بعد وهران)، أما الأسماك فتختص بها المدن الساحلية، مثل قابس

1- أحمد بن واضح اليعقوبي (ت 284 أو 292هـ/ 897 أو 905م). كتاب البلدان. مطبعة بريل. ليدن 1860. ص 129

2- شمس الدين محمد المقدسي (336 - 390هـ/-947 1000م). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. ط 2. مطبعة بريل. ليدن 1906. ص227

3- ابن حوقل. (قسم المغرب في كتاب المسالك والممالك. صص 42...74). المصدر السابق. ص 57

وسوسة ومرسى الخرز، وكان الصوف من قابس وبونة، والجلود من قابس، والعسل من جزائر بني مرغنان، والحديد من معادن بونة الذي يحمل إلى الأقطار.

ثانيا: مسلك داخلي، بين المنطقة الساحلية والصحراء، ويبدأ من إفريقية إلى طنجة.

وهو عبارة عن شبكة من المسالك التي تربط بين المراكز والأسواق التجارية المغربية. وفي هذه الشبكة نجد طرقا رئيسية وأخرى فرعية. فالطرق الرئيسية تربط شرق المغرب بغربه، وتبدأ من إفريقية وتنتهي بأقصى المغرب، وهي طريقان :

أ– الطريق الأول: يبدأ من القيروان، وهو بثلاثة فروع تلتقي عند المسيلة، حيث تعد مركز التقاء الطرق، فالفرع الأول، يتوسط الفرعين الآخرين، ويبدأ من القيروان باتجاه مدينة تاهرت غربا، ويمر بكثير من المدن منها تلمسان، وينتهي عند فاس. ومن ذكره عند "ابن حوقل": «نذكر الطريق من فاس إلى المسيلة فمن فاس على سبو... ومنها إلى تلمسان مرحلة لطيفة وهي مدينة أزلية ولها أنهار جارية وعليها أرحية وفواكه كثيرة»[1]. وقطع هذا الطريق مناطق الإنتاج الزراعي والحيواني، ونقل منتجاتها، ومن ذلك: الحنطة والشعير من مدن كثير مثل باغاي وطبنة والمسيلة، والقطن من المسيلة وطبنة، والقنب والكرويا من منتجات سبيبة وأغمات، والزعفران من مدينة مجانة، والكتان من سبيبة وطبنة، والسفرجل من المسيلة، وكذلك الماشية من مدن أخرى مثل طبنة.

ب– الطريق الرئيسي الثاني: يربط إفريقية بسجلماسة غربا، وهو يسير في مناطق الواحات التي أصبحت حلقة اتصال بين أجزاء المغرب المختلفة وسارت عبرها القوافل التجارية. وأهم ما يميز مدن الواحات هو كثرة نخيلها وإنتاجها الواسع من التمور، بالإضافة إلى الماشية.

ثالثا: مسالك قوافل التجارة الصحراوية في اتجاه الجنوب، والتي تربط

1- ابن حوقل. المصدر السابق. صص 62 - 63

المغرب ببلاد السودان عبر الصحراء، فيصفها "ابن حوقل" بقوله: « وبين المغرب من البلدان التي قدمت ذكرها وبلد السودان من سائر الأعراض مفاوز منقطعة، قليلة المياه متعذرة المراعي،لاتسلك إلا في الشتاء»[1]. وتلك هي مسالك تجارة الذهب والعبيد من السودان الغربي[2].

ومنها المسلك الذي يبدأ من سجلماسة وينتهي بأودغست وغانة في السودان الغربي، وحدده «ابن حوقل»: «من السوس إلى سجلماسة إلى أودغشت شهران...ومن أودغشت إلى غانة بضعة عشرة أيام بالمفرد... ومن أودغشت إلى أوليل معدن الملح شهر، ومن أوليل إلى سجلماسة راجعا إلى الإسلام شهر ونصف»[3]. وفي سجلماسة يرتبط بمسالك تجارية فرعية مع مدن المغرب الأقصى، بالإضافة إلى ارتباطه بالطريق المؤدي إلى إفريقية. وكانت تعبر هذه المسلك السلع والمتوجات الزراعية والحيوانية والصناعية، المتبادلة في المغرب، الذي كان يؤدي دور الوسيط التجاري، بين بلدان السودان والمشرق وأوروبا، وأثمن بضاعة عبرته من بلاد السودان هي التبر (الذهب) والعبيد. (أنظر الخريطة رقم: 2)

رابعاً: أما المسالك البحرية المستخدمة في النشاط التجاري الخارجي لبلاد المغرب في القرن 4هـ/10م، فهي المسالك التي تنطلق من وإلى مدن سواحل المغرب. ولكن القليل من تجارة المغرب البحرية كانت مع دول البحر المتوسط الإفرنجية، حيث كان التجار الروم يقدمون ببضائعهم إلى موانئ المغرب، منها الأمتعة والمطاعم، ويأخذون السلع المصنعة مثل المرجان الذي اشتهرت سواحل مرسى الخرز، وتنس، وسبتة.

أما الكثير من تجارة المغرب البحرية كانت مع الأندلس. وكانت « تنس أكبر المدن التي يتعدى إليها الأندلسيون بمراكبهم ويقصدونها بمتاجرهم وينهضون منها إلى ما سواها... ووهران هي الأخرى فرضة الأندلس وإليها ترد السلاع ومنها

1- ابن حوقل، المصدر نفسه، ص 72

2- أحمد الياس حسين . العلاقات بين المغرب العربي ومملكة غانة بين القرنين الثاني والخامس الهجريين (رسالة دكتوراه)، قسم التاريخ بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة 1983، ص 64-63

3- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 66

يحملون الغلات»[1]. فكانت تعبر إلى الأندلس مراكب محملة بالسلع المصنعة، وفي مقدمتها مصنوعات الصوف، ومواد الخام المعدنية وغير المعدنية.

وعن المراسي القريبة من تلمسان، والتي لها نشاط تجاري بحري، خاصة مع الأندلس، يضيف صاحب كتاب الاستبصار: «مدينة أرشجول: مدينة قديمة أزلية فيها آثار كثيرة، وهي على نهر تأفنى وهو نهر كبير تدخل فيه السفن. والمدينة قريبة من البحر تصل إليها المراكب اللطاف. وهي ساحل تلمسان، بينها وبين تلمسان فحص زيدور لحرث القمح»[2]. (أنظر الخريطة رقم: 3)

أما إلى المشرق فنقلت عبر المسالك البرية والبحرية سلع وبضائع أوسع، شملت : العنبر والحرير والأكسية الصوفية، والحديد والرصاص والزئبق، والخيول النفيسة والبغال والإبل والغنم، والخدم المجلوب من بلاد السودان، والخدم المجلوب من أرض الصقالبة عبر الأندلس. ومن ذلك ذكره «ابن حوقل»: «فأما ما يخرج من المغرب إلى المشرق فالمولدات الحسان التي ستولدهن بنو العباس وغيرهم... والغلمان الروم الحسان، والعنبر والحرير والأكسية الصوف الرفيع والدنية والجباب الصوف والأنطاع والحديد والرصاص والزيبق، والخدم المجلوب من بلاد السودان، والخدم المجلوب من أرض الصقالبة، ولهم الخيل النفيسة من البرنين، والرجال الجلد من البربر»[3].

مسالك التجارة بين القرنين 5 و7هـ (11 - 13م)

عمل بنو حماد (405 - 547هـ/1014 - 1152م)، والمرابطون (454 - 541هـ / 1062 - 1146م)، والموحدون (541 - 667هـ/ 1146 - 1269م)، على ازدهار تجارة المغرب، وذلك بحماية المسالك التجارية وتأمينها، وتسهيل سبل التجارة، وإقامة الآبار والاستراحات في طرق القوافل التجارية، وإنشاء المنارات في الثغور، واهتموا ببناء الأسطول البحري من أجل

1- ابن حوقل، المصدر نفسه، صص 52 - 53

2- مؤلف مجهول (مغربي من القرن 6هـ/12م)، تعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة «آفاق عربية» - بغداد، (ودار النشر المغربية - الدر البيضاء)، 1986، ص134

3- ابن حوقل، المصدر السابق، صص -69 70

زيادة التبادل التجاري بين مختلف الجهات. وبعد ما دخل عبد مؤمن تلمسان سنة 540هـ/1145م، قام الموحدون ببناء القلاع، والمنازل والقصور بأسوار صلبة، وضربوا فيها عملتهم كما قاموا ببناء الفنادق لاستراحة القوافل، واهتموا بميناء هنين لتسهيل التجارة البحرية.

يقول "البكري" (404 - 487هـ/1014 - 1094م) عن تلمسان: «تلمسان قاعدة المغرب الأوسط لها أسواق ومساجد ومسجد جامع وأشجار وأنهار عليها طواحين وهي... مقصد لتجار الآفاق»[1]. وكذلك يذكرها «ابو الفداء» على أنها مدينة مشهورة وكبيرة ولها فرض عديدة، إذ دون: «وتلمسان مدينة مشهورة مسورة... وهي قاعدة مملكة ولها حصون كثيرة وفرض عديدة أشهرها هنين ووهران، وهنين بقابل المرية من الأندلس». وكتب: «وأرسقول: فرضة تلمسان على عشرين ميلا عن تلمسان، وهي بر العدوة ويقابلها مدينة المرية من الأندلس وعرض البحر بينهما درجتان»[2].

وصف «الإدريسي» (493 - 561هـ/1100 - 1165م)، مسالك التجارة حول مدينة تلمسان، قائلا: «وأما من أراد الطريق إلى تلمسان من سجلماسة فالقوافل تسير من تلمسان إلى فاس، ومن فاس إلى صفروى إلى تادلة إلى اغمات إلى بني درعه إلى سجلماسة... ومدينة تلمسان قفل بلاد المغرب، وهي على رصيف للداخل والخارج منها لا بد منها والاجتياز بها على كل حالة، والطريق من تلمسان إلى مدينة تنس سبع مراحل... والطريق من تلمسان إلى مدينة وهران الساحلية وهما مرحلتان كبيرتان وقيل بل هي ثلاث مراحـــل... والطريق من مدينة تلمسان إلى مدينة المسيلة من تلمسان إلى مدينة تاهرت أربع مراحل...»[3]، وقال: « وهنين مدينة حسنة صغيرة في نحو البحر، وهي عامرة عليها سور متقن وأسواق وبيع وشراء، وخارجها زراعات كثيرة، وعمارات

1- البكري (487-404هـ/1094-1014م) . المصدر السابق. صص 76 - 77

2- إسماعيل أبو الفداء (732-672هـ/1331-1273م). تقويم البلدان. دار صادر. بيروت عن (دار الطباعة السلطانية. باريس 1820). ص137 / ص123

3- الشريف الإدريسي (561-493هـ/1165-1100م). المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (مأخوذ من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق). مطبعة بريل. ليدن 1863. صص 81...87

متصلة، وكذلك من هنين إلى تلمسان في البر أيضاً أربعون ميلاً »[1].

كانت أهم المسالك في عهد الموحدين تلك التي تنطلق من فاس نحو سبتة أو تلمسان أو سجلماسة أو نحو مراكش، ومن مدينة مراكش يستمر الطريق إلى الصحراء، كما ينطلق المسلك التجاري أيضا نحو الصحراء من مدينة سجلماسة. وكانت مدينة سجلماسة هي البوابة التي يدخل منها ذهب السودان إلى المغرب، والمسافة ما بينها وبين تلمسان وفاس ومراكش على حد سواء، فمن حيث قصد إليها المسافر من أحد هذه المدن يكون ذلك مسيرة عشرة أيام، كما ذكر «عبد الواحد المراكشي» (توفي647هـ/1247م) في كتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب».[2] وكانت مدينة سبتة ورباط الفتح وطنجة ووهران وهنين وتنس، تشكل أهم الموانئ الساحلية الغربية التي تنتقل منها السفن إلى تونس وبونة وبجاية والأندلس وصقلية، محملة بالسلع والبضائع، مثل الصوف والجلود والفواكه المجففة والشمع والعسل، ويأتيها من الأندلس الأخشاب والمزروعات ومنتجات الشرق[3]. كما تبادلت سبتة وطنجة ووهران وتنس وهنين وبجاية وبونة وتونس، المنتوجات المختلفة مع البندقية وجنوة ومرسيليا وكطلونيا وبيزة، حيث كان التجار الإفرنج يشترون من المغرب الفواكه الجافة، والزيت، والصوف، والدبغ، والمعادن كالنحاس[4]. (أنظر الخريطة رقم: 4)

أما المسالك الصحراوية، فأهمها ما ينطلق من سجلماسة إلى مدينة غانة في السودان الغربي، والذي حمل عبره التجار أنوع البضائع والسلع مثل الملح والتمور والحبوب الجافة والنسيج، والمصنوعات مثل عقد خشب الصنوبر، وخرز الزجاج الأزرق، وإسورة النحاس الأحمر، وحلق، وخواتم النحاس، وجلبوا الذهب والعبيد، هذا مما أورده «ياقوت الحموي» (توفي 626هـ/1229م) في «معجم

1- الإدريسي، المصدر نفسه، ص 172

2- عبد الواحد المراكشي (توفي647هـ/1247م)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة 1963، ص 443

3- يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ط2، ترجمة محمد عبد الله عنان، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة 1958م، ص 494

4- علبة الأندلسي: ميثاق الرابطة : 29 - 01 - 2010

البلدان».[1] إن بعضا من هذه السلع والبضائع هي ليست من سجلماسة، وانما يحملها التجار القادمين اليها من مختلف الاتجاهات، ومنها ينطلقون ببضائعهم وسلعهم إلى بلاد السودان الغربي، عبر مسالك القوافل الصحراوي.

ويحمل أيضا من المغرب إلى بلاد السودان الاواني الفخارية. والى مدينة أودغست، قال "البكري": « ويجلب اليها القمح والتمر والزبيب من بلاد الاسلام...، بالاضافة إلى النحاس المصبوغ وثياب مصبغة بالحمراء والزرقة مجنحة»[2]. ووصف "الإدريسي" عمليات تصنيع المرجان وتصديره قائلا: «ومدينة سبتة سوق لتفصيله) أي المرجان) ودلكه وصنعه خرز او ثقبه وتنظيمه .. وأكثر ما يحمل إلى غانة وجميع بلاد السودان لأنه في تلك البلاد يستعمل كثيرا»[3]. (أنظر الخريطة رقم: 5)

مسالك التجارة الغربية بعد الموحدين

جاء وصف «ابن سعيد المغربي الأندلسي»(610 - 685هـ/ 1214 - 1286م)، وصفاً دقيقا للمسالك التجارية في منطقة تلمسان، وذكر فيه: «إلى أرشغون فرضة تلمسان وحيث ينصب النهر الذي ينصب فيه نهر يسر الكبير سبعون ميلاً. ومنه إلى فرضة هونين اثنا عشر ميلاً. ومنها إلى فرضة وهران المشهورة ثمانون ميلاً. وهي آخر فرض هذا الجزء من المدن العدوية. ومينأؤها مشهور مأمون في الهول. ويقابل مدينة باديس من بر الأندلس مالقه. وهي مع خط الإقليم الخامس وعرض البحر بينهما درجة. ومنها يحمل التين المالقي واللوز إلى الأقطار.... وتقع تلمسان المشهورة حيث الطول أربع عشرة درجة وأربعون دقيقة والعرض ثلاث وثلاثون درجة واثنتان وأربعون دقيقة، وبينها وبين ارشغون عشرون ميلاً، وبينها وبين هونين ثلاثون ميلاً، وهي الآن قاعدة بني عبد الواد من زناتة، ومنها تحمل ثياب الصوف المفضلة على جنسها المصنوع في سائر المغرب،

1- شهاب الدين ياقوت الحموي (توفي626هـ/1228م). معجم البلدان. ج 2. دار صادر. بيروت 1977. ص 12
2- البكري. المصدر السابق. ص -158 159
3- الإدريسي. المصدر السابق. ص 168

وتحمل منها الجم الخيل والسروج وما يتبع ذلك. والأندلسيون يقولون كأنها من مدن الأندلس لمياهها وبساتينها وكثرة صنائعها»[1].

وكانت القوافل التجارية المتجهة نحو بلاد السودان تنطلق من تلمسان، والمدن الشمالية في بداية الخريف من كل سنة، وتعود إليها في منتصف ربيع السنة الموالية. وظلت هذه الرحلات لفترات طويلة غير مضمونة العواقب، ومحفوفة بالمخاطر في المناطق الصحراوية، فالظروف الطبيعية القاسية والمتمثلة في فشدّة الحرارة، وكثافة الزوابع الرملية، والصقيع كلّها زادت في معاناة التجار والمسافرين. وكان ''العبدري'' أثناء رحلته (التي بدأها سنة 688هـ/1289م) قد مرّ من تلك المسالك ووصف خطورتها[2]. و وصف طريق العودة إلى فاس مرورا بتلمسان، فقال :«ثم وصلنا إلى تلمسان وكانت نيتي أن أقيم بها مدّة حتى أجد صحبة قوية أقطع بها المفازة التي في طريقها إلى رباط تازا»[3]. و لم يتمكن ''العبدري'' من الانتقال إلى فاس إلاّ بعد خروج قافلة تجارية كبيرة رافقها ومن كان معه، وأحصى عدد جمالها بأكثر من ألف. وقد تعودت بعض القبائل الواقعة في الصحراء، فرض إتاوات على القوافل التجارية المارة بطريقها، مقابل ضمان الحماية لها وتوفير الأمن.

إن تلمسان كانت من أهم حواضر المغرب الإسلامي لاسيما في العهد الزياني، وقد ساهمت في ازدهار الحضارة الإسلامية، حيث كانت في هذه الفترة قبلة العلماء وطلاب العلم، الذين كان لبعضهم دور كبير في نقل معالم الحضارة الإسلامية إلى بلاد السودان والغربي، عن طريق القوافل التجارية التي كانت تنطلق من تلمسان. وقد أشار إلى ذلك ''ابن بطوطة''(703 - 779 هـ/ 1304 - 1377م) في رحلته، إذ قال: «ثم خرجنا عنها (أي جزيرة سردانية) فوصلنا بعد عشر إلى مدينة تنس، ثم إلى مازونة، ثم إلى مستغانم، ثم إلى تلمسان. فقصدت

1- علي ابن سعيد المغربي الأندلسي(685-610 هـ/ 1286-1214م). كتاب الجغرافيا. المكتب التجاري للطباعة والنشر. بيروت 1970. (ص34: ترقيم إلكتروني)

2- محمد العبدري الحيحي: الرحلة المغربية. تحقيق محمد الفاسي. الرباط: 1968. ص 8

3- العبدري. المصدر نفسه . ص 132

العباد، وزرت الشيخ أبا مدين رضي الله عنه ونفع به، ثم خرجت عنها على طريق ندرومة»[1].

الخريطة رقم: 1[2]

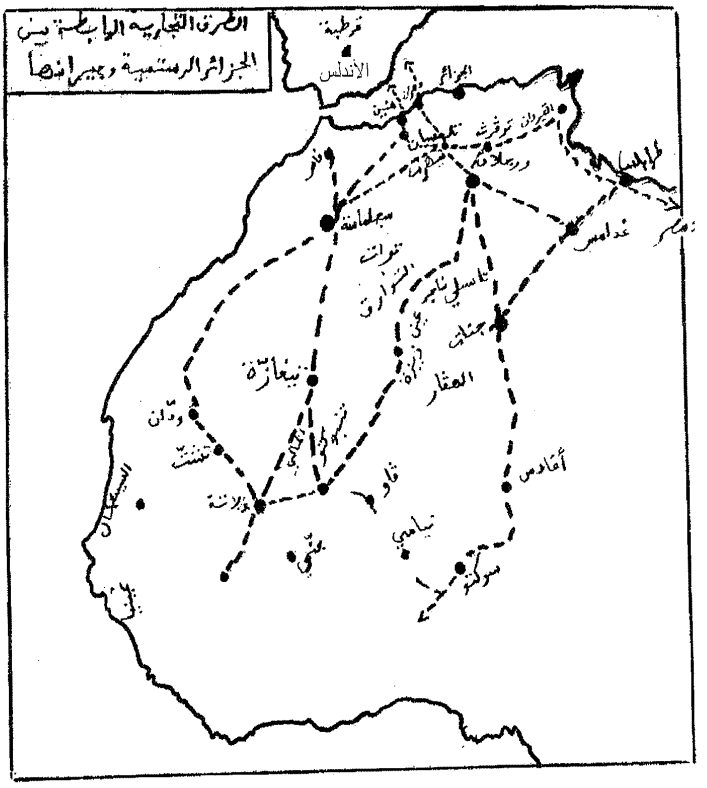

المسالك التجارية الرابطة بين بلدان المغرب وجيرانه في القرنين 3 - 4هـ/9 - 10م

1- محمد بن عبد الله بن بطوطة (779-703 هـ/ 1377-1304م). رحلة ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. ج1 . دار الكتب العلمية. بيروت 1992. ص330

2- محمد الطمار. الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر 1983. ص96

الخريطة رقم: 2[1]

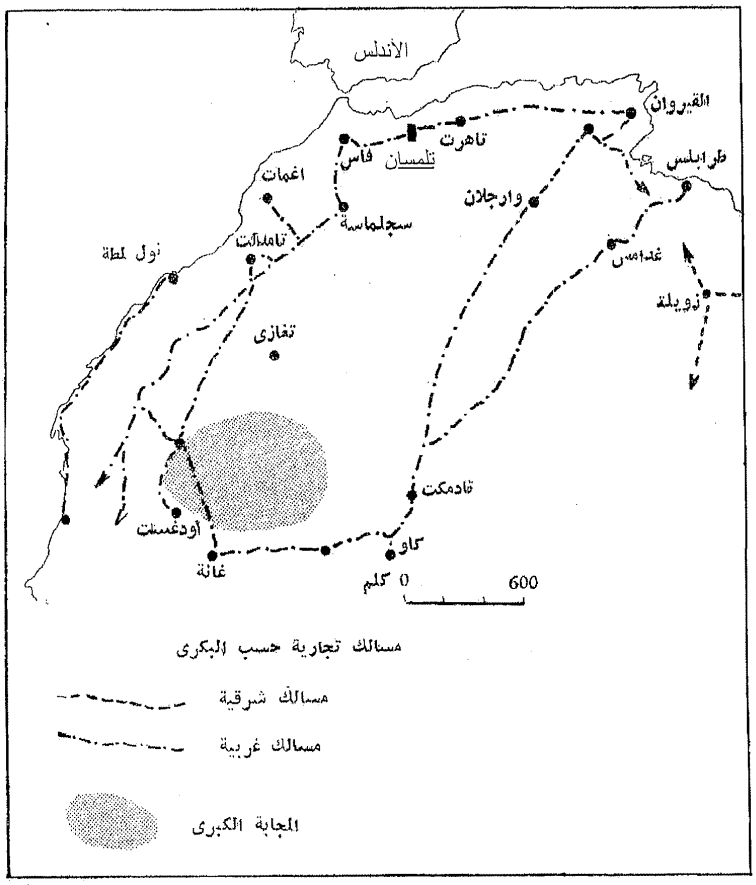

المسالك التجارية خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين (الثامن والتاسع الميلاديين)

1- الحبيب الجنحاني. المغرب الإسلامي. الدار التونسية للنشر. تونس1978. ص231

الخريطة رقم: 3[1]

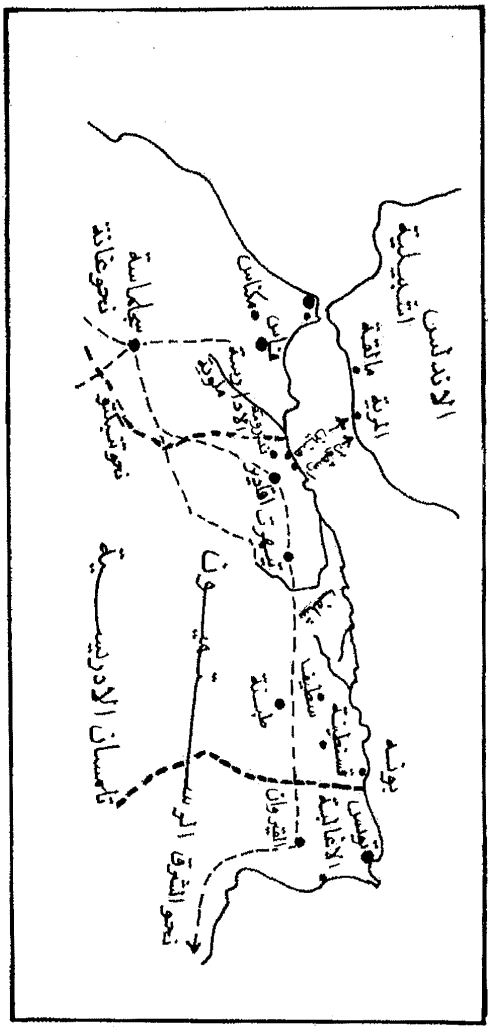

المسالك التجارية الشمالية للمغرب في القرنين 3 - 4هـ/9 - 10م

1- محمد الطمار، تلمسان عبر العصور، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص4

الخريطة رقم: 4

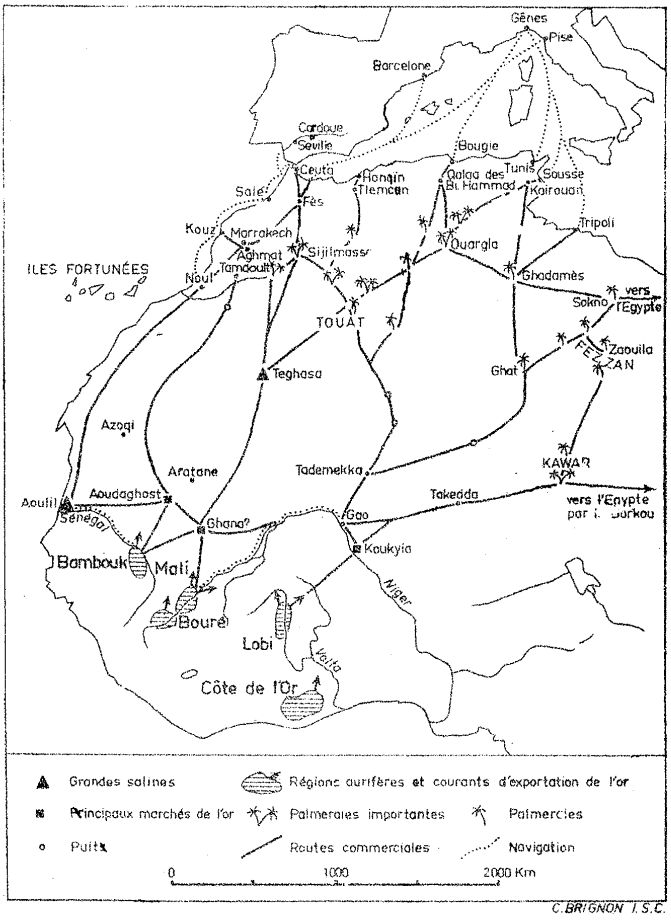

المسالك التجارية بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي

الخريطة رقم: 5[1]

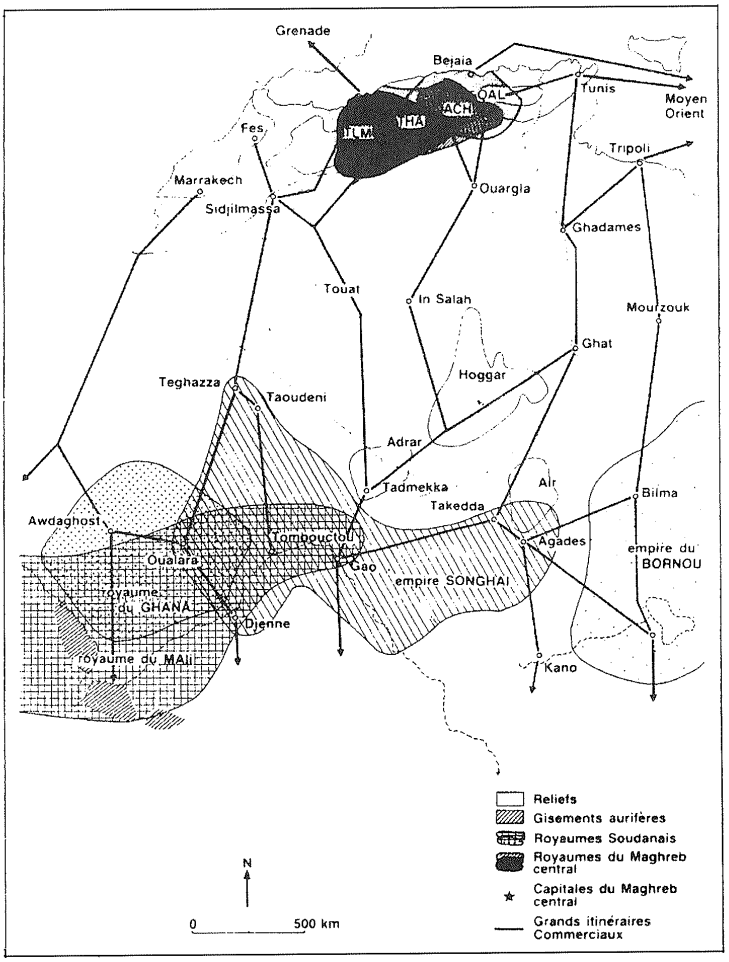

الوضع الإقليمي والمسالك الصحراوية

1- MARC Cote, L'Algérie ou l'Espace retourné, Constantine 1993, p.93